

ورغمي عليه . فاخذوه الى خيمته فصار له دور حمى صعب وفي ربيع دور مات . ثم انته
 باقامة المرضى (المحصرة) اياماً كثيرة على عكس ما ظهر ثمرة . وبعد ايام قليلة حضر امر
 من الدولة بعزل درويش باشا من ولاية الشام وصيدا ويتوجه الى كوطاهيا و امر
 الى مصطفى باشا يقيم مكانه الى حضور امر ثاني . وهكذا قرت (هدأت) الامور .
 ثم وصل امر سلطاني بقيام الباشا المذكور ويكون وزيراً بالشام . وعبدالله باشا جاء
 له رضى وعفو ويبقى مكانه . وهذا صار من عهد علي باشا والي مصر بواسطة الامير
 بشير وانتهى المركب على ولاش (ولاشي) وما صار افادة الا بفقد هلقدر عالم
 (عدد عظيم من الناس) بحجة (بسبب) هذا الشر قبل وبعد واخيراً في موت
 سلمون منسى هذه الامور . وايضاً طلعت في رأس درويش باشا
 ثم ان (166٢) الامير من بعد مدة قريبة حضر من مصر وطلع لمكاثم للجبل
 وعزل الامير عباس وبغض الشيخ بشير للنهاية

ثم وفي مدة ولاية درويش باشا انكسرت شوكة الروم وبطركهم بسبب حادث
 الموره . فقدم المتغربون عرضحال لاجل حضورهم لاشغالهم مع قسوسهم . ولا بد نقد
 من الطائفة خدمة الوزير . فصدر لهم بيلردي بشرح مستطيل . والمضون ان بطرك
 الروم ليس له قارش معهم على الاطلائ ولا مع قسوسهم ولا يعترضهم اين ما ارادوا
 يتسيرا امور ديانتهم . وتوجه لهم هذا البيلردي للجبل . فحالاً جمعوا الكهنة المرتبين
 بالشام وجاءوا بهم جملة للشام باشتهار وعزازة . والروم مع بطركهم اتعهبوا جداً
 وما استفادوا غير عمل الخطية واعطوا جواب لله تعالى في ذلك الموقف العظيم . واستقام
 درويش باشا والي شام ستين ومضى امره وتولى الشام مصطفى باشا (له بقية)

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو البسوي (تريخ)

٥ . اردن

قضينا في ماردين خمسة عشر يوماً صرفناها بين الزيارات الرسية للسادة
 الاساقفة ولوجوه الطوائف والاقارب وبين مقابلة ادباء المدينة واستعراض آثارها

ماردين مدينة قديمة ذكرها الجغرافي اليوناني بطليموس في القرن الثاني المسيح ثم اميان مرقلان من مؤرخي القرن الرابع (في الكتاب الثامن عشر من تاريخه الفصل السادس . وفي الكتاب التاسع عشر من الفصل التاسع) وقد عدّها هذا الاخير من اخصّ قلاع جبل الازل وهو الجبل المعروف عند الرومان بمايوس (Massius) على عطفه الغربي والبعض يلحقونها بجبل قرج داغ من جبال ديار بكر (١) على عطفه الجنوبي

وكانت ماردين في الاصل حصناً اختاره كما هو المظنون ملوك الفرس لحفظ ثغورهم ثم صار الى الرومان فجاءوه من احصن قلاعهم واحزها فاخذ اهل تلك البلاد يشيدون لهم الدور حولها ليحتسوا مجامعا من هجرات المدد وفيها الى اليوم عدّة آثار تدلّ على أنّ المدينة كانت مأهولة منذ القرن الرابع منها نقود وقنوش وقسيفا . ومدافن : ومن اقدم ابنتها كنيسة مار جرجس للارمن الكاثوليك وكنيسة مار هرمز للكلدان وكتاتهما من طرز كنانس القرن الخامس او السادس في بلاد الجزيرة ولما دخل العرب ما بين النهرين كانت ماردين من جملة المدن التي فتحها صلحا المياض بن غنم مع نصيبين ودارا وحصن كيفا وطور عبيد بن سنة ١٩ هـ (٦٤١ م) وقد بقيت في حكم الخلفاء العبّاسيين الى اواخر القرن الخامس للهجرة حيث استولى عليها الملوك السلجوقيون وصارت بعد قليل في عهدة احد امرائهم المعروف بابيل غازي وهو رأس الدولة الارثوذكسية سلاطين ماردين الذين تملكوها نيفا وثلاثاثة سنة فخلفهم عليها التركمان مدّة الى ان فتحها آخر السلاطين الغازي سليم الاول سنة

١٥١٥

وقد ذكر ماردين كل جغرافي العرب واطنبوا في وصف حرازتها . قال ياقوت في معجم البلدان (٤ : ٣٩٠) : « ماردين قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفناء الواسع وقدأها ربض عظيم فيه اسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخطاها وودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الاخرى وكلّ درب منها يشرف على ما تحته من الدور ليس دون سطوحهم مانع » . وقال

(١) هذا قوله الحرفي (Per Izalem montem inter castella praesidiaria duo

Merida et Lorne (Amm. Marcellin XIX, 9)

ابن حوقل (ص ١٤٣) : « وبالقرب من نصيبين جبل مارددين ومن قراد الارض الى ذروته نحو من فرسخين وعليه قلعة تُعرف بالباز الاشهب في بلد الروم لا يُستطاع فتحها عنوةً ويجبل مارددين جوهر للزجاج جيد » . وروى القزويني لبعضهم قوله في وصف مارددين :

في مارددين حاما الله لي سكنٌ لولا الضرورة ما فارقتها فدا
لاملها السن لان المديد لها وقلهم جبلي قد قسا وعسا

اماً اسمها فزعم كسبة العرب انه جمع « مارد » ثم روى صاحب معجم البلدان (٣١٠ : ٤) ان « ستحدث هذه المدينة بلغة قول الزبأ . « تَمَرَّد مارد وعز الابلق » ورأى حسنة قلعة وعظمتها فقال « هذه مارددين كثيرة لا مارد واحد » وانما جمعه جمع من يعتل

غير ان هذا الرأي في اشتقاق اسم مارددين ضعيف واصل تشبثها « مَرْدَة » كما ورد في اقدم النصوص اليونانية واللاتينية والسرانية وهي تُنسب الى المرد جيل من اجيال الفرس ذوي البطش كان الملوك يستدعونهم الى الدفاع عن الاماكن الحصينة لدربتهم على الحرب . ومعنى اسمهم « الرجال الاشداء والصناديد » . ومنهم المردة الذين سكنوا قليمية وحضنوا درب الدروب وعرفوا هناك بالجرافة وهم الذين وكل اليهم ايضاً ملوك الروم تحصين لبنان في وجوه العرب في عهد بني امية (١) وقد جمع الاسم على صورة الجع السرياني فقيل « مَرْدِين » او « مارددين » .

والحق يقال ان مارددين كانت احسن مقام للدفاع عن ثغور بلاد الجزيرة وهي على اعطاف جبل عال منقطع من ثلاث جهات فلا يُدخل اليها الا من مضايق ومعاير يسهل تمكين استحكاماتها في وجه العدو . وقد زادت الصناعة في عمل الطبيعة اذ سُيدت في قنة الجبل تلك القلعة المنيعة التي عجز عنها كثيرون من الابطال ومن جملتهم تيمورلنك الذي حاصرها زمناً طويلاً فلم يفلح في كسر شوكتها وذلك سنة ١٣٦٦ (انظر صورة هذه القلعة في الشرق ١٢ : ٥٩٢)

(١) راجع ما كتبه حضرة الاب لامنس في المردة والجرافة (الشرق ١٠٦ : ١٠٤، ١٠٤) ومقالات سيادة المطران الجليل يوسف دريان في الامر عينه

ولاردنين مع حسن موقعها صفات قلما تجتمع في مدن الشرق كتنقارة جوهها ورطوبة هوائها واعتدال مناخها وخصب ارضها العجيب وحولها الحدائق الغناء والبساتين الفريزة الخيرات الوافرة الفسلات مع ضروب الفواكه الكثيرة الاجناس اللذيذة الطعم وقد شبه سياح الفرنج عاصمتها بمدينة كويتو عاصمة جمهورية خط الاستواء في اميركا

وقد دخلت النصرانية مدينة ماردنين في قرون النصرانية الاولى وعلى الاقل بمد تنصر قسطنطين الكبير اذ عمت النصرانية تلك الانحاء. ولا سيما جاراتها نصيبين وآمد ودارا. ويؤيد ذلك ما وجدوه يقرب القلعة من آثار الابنية القديمة المبينة بالحجارة البركانية بينها البروج المستديرة والدور التنيسة. وذكر المسير أينسورث (Ainsworth) ان بينها المعابد الواسعة ومقبرة كثيرة المدافن ترى عليها الصلبان ومما يدها على هندسة معابد النصارى وكل ذلك يثبت رأي مؤرخي الارمن الذين يرقأون ان ماردنين هي مرادة القديمة التي ملكها طرودات الثاني المتولي على تلك الانحاء. باسم الرومان في اواخر القرن الثالث وهو الذي نصره القديس غريغوريوس المتود فتبعته الرعية في نصرانيته (١)

ثم كثر في جبل ماردنين وملحقاته عدد السياح والتسأك والاديرة حتى دُعيت تلك الجهات بجبل القديسين او طور عابدين (او عدين) وكان بعض هذه الاديرة يبلغ عدد رهبانه بضع مئات بل بضعه الوف كما تشهد عليه الآثار التاريخية وقد كتب حضرة الاب اسحاق ارملة في المشرق (١١: ٧٦٠) مقالة حسنة في اديار ماردنين تحيل القراء اليها

على ان معالم الدين القويم قد طُست نوعاً في ماردنين لما جرت تلك المنازعات الدينية التي اوقعت قسماً كبيراً من اهل الجزيرة والعراق في بدعتي النساطرة واليعاقبة فاصبحت ماردنين احد مراسع خصومات البدعتين. وكان اليعاقبة فيها على فرعين فرع ارمني كان ينتمي الى عنصر الارمن وفرع وطني سرياني. وصار لليعاقبة السبق على

(١) روى تارغان الورخ ان ارشك الخامس ملك العجم كان اخذ قبائل من المردة الى جبال الجزيرة وان ماردنين باسمهم دُعيت. وكان هؤلاء القوم يدينون بدين المجوسية ثم تنصروا. اطلب ايضاً (Guinet: Turquie d'Aste, II, 501)

الفاطرة لاسيا لما ابتوا ديو الزعفران وجعلوه مركزاً لبطاركتهم منذ القرن السابع فصارت ماردن حصن اليقويّة

وفي ذلك القرن السابع دخل الدين الاسلامي في ماردن فاسلم قسم من اهلها وكان بقي فيها بقايا من المجوسية ومن اشباع اليزيديين عبدة الشيطان ولم تحل المدينة حتى اليوم من آثار هذه الاديان. واصدق ما نعرف من احصاء اهل ماردن ان عددهم يبلغ ٤٠,٠٠٠ النصف منهم مسلمون والباقيون نصارى وليس في ماردن اثر ليهود واغلب هولاء النصارى في يومنا من الكاثوليك اذ لم يبق في ماردن من المبتدعين سوى ١٥٠٠ من اليعاقبة. أما الفاطرة فقد باد جنسهم منها. ولم تنل الكنيسة الرومانية هذا الفوز الباهر الا بعد الجهاد الطويل بعد ان كان اسم الكتلكة مجهولاً في ماردن

والفضل في هذا التغيير العظيم انا هو عائد الى المرسلين اللاتين الذين منذ ثلاثة قرون افرغوا ما عندهم من وسائل الفيرة الرسولية ففصلوا عن بدعتي نسطور واطريخا شعباً مختاراً اثاره بنور الايمان ووربطوه مع مركز الوحدة بروابط شديدة جدت روحه واثرت كما في اوائل الكنيسة قمار الخلاص والنعمة

وكانت ماردن بعد حلب احدى المدن التي اصابت سهاً افروز من هذه النهضة الدينية. ولعل اول من دخلها من المرسلين الآباء اليسوعيون سنة ١٦٨٢ وهم الابوان ميشال نو (M. Nau) ورينيه بيلون (René Pillon) والاخ المساعد هيلار فاستأجروا في ماردن بيتاً واخذوا يرشدون النصارى فاجتمع اليهم كثيرون طلبوا الانضمام الى الكنيسة الرومانية. وكان الاب نويتاطي الطب فيقصده المرضى من كل صوب. الا ان اليعاقبة اثاروا على المرسلين اهل نحتهم ورشوا عمال الدولة فالتقوا المرسلين بالحسب واذاقوهم ضروب العذابات فلم ينجوا منها الا بعد غرامة طائلة واضطروا الى ان يخرجوا من ماردن ويعودوا الى حلب

ثم قدم بعد ذلك الى ماردن الكبوشيون والكرمليون في القرن الثامن عشر وردوا اكثر فاطرة ماردن بمساعدة البطاركة الكلدان الكاثوليك اليوسفيين الذين في ديار بكر (١) وكذلك سمي هولاء المرسلون بردي يعاقبة ماردن (٢) وارمنها (١) راجع تاريخ هولاء البطاركة في المشرق (٣-٨٧٨-٨٨٢) (٢) راجع في

الغريغوريين مع بعض تلامذة مدرسة انتشار الايمان في رومية كالسيد ملكون طاز باز والسيد اندراوس اخيجان اول بطاركة السريان الكاثوليك (١) وبقي هؤلاء الرسلون في جهاد متواصل حتى اواخر القرن الثامن عشر ثم عادوا في القرن التاسع عشر واستأنفوا رسالتهم لكن الكرملين انضموا بعد ذلك الى اخوتهم في رسالة بغداد وبقيت ماردين مركزاً للرسالة الكبرشية وحدها وكان يرأسها قصاد رسوليون من الرهبانية عينها اولهم السيد نترلا كستلس (Nic. Castells) الاسباني الذي سعى مع الاب ريتون في رد اليعاقبة والارمن فبارك الله مساعيه برجوع معظم ارمن ماردين الى الكثلكة وارتداد كثير من اليعاقبة. وكانت وفاته في ماردين في ٢ ايلول سنة ١٨٧٣. وفي السنة ذاتها في ٤ تشرين الثاني توفي خلفه في القصاد الرسولية السيد زكريا فانشيرلي (Zach. Fanciulli)

واتفقت هذه الحركة مع اعتقاد ذلك البطل القدام السيد انطون سمجيري الشهير الذي نبذ الشيعة اليعقوبية وتكثلك وتعين بطريركاً على الطائفة السريانية واجتنب عدداً عديداً من مشايخه الى الاحتذاء بثله. وكانت وفاته براحة القداسة سنة ١٨٦٤

فكانت نتيجة غيرة كل هؤلاء ان ماردين لم يبق فيها في عهدنا لا نسطوري ولا ارمني غريغوري الا ١٥٠٠ يعقوبي كما مر. وفي المدينة ثلاثة رؤسا. اساقفة ارمني وسرياني وكلداني وهناك كربي بطاركة السريان كما قرره المجمع المقدس واثبت مجمع الشرفه

اماً الكبرشيون فلا يزالون مع قلتهم مجذون في خدمة نصارى ماردين وتهذيب احداثها ومعالجة مرضاها مع رؤسا الطوائف الكاثوليكية. وبهتتم قدمت راهبات فرنديات متنيات الى رهبانية مار فرنسيس السنة ١٨٨٢ ففتحن المدارس للاناث وازدحت عندهن القيات على اختلاف ملهن

المشرق قصة اعتداء اهل ماردين اليعاقبة التي رواها الشماس اليبان الكزير (في المشرق السنة ١٩٠٩ ص ٥٨٩ ط١)

(١) راجع تاريخي الكنيسة السريانية لسادة رئيس اساقفة حلب على السريان السيد ديونوسوس افرام تاشك ولليكنك فيليب طرازي

وكان يدبر الرسالة الكبوشية يوم مرورنا في ماردن حضرة الاب دانيال دي منويو (Daniel de Menopolo) وهو لا يزال في تدبيرها حتى الآن . ومن فضله على نصارى ماردن أنه بعد خروجنا منها بأيام اذ تهدتهم قبائل الاكراد بالتهب والقتل كما جرى في ديار بكر التجأ الى ابراهيم باشا ودعاه الى الدفاع عن المظلومين فقبل ورد الاكراد عن ماردن . وفتح الاب دانيال ديره للهابيين من تل ارمن والضياع المجاورة وآوى منهم ألفين بنيف . فشكرت فرنسة للسراي همة ومنحت على يده نوطاً ذهبياً لابراهيم باشا

رأيت في وصف الكعبة لماردن انهم يذكرون مدارسها . وما لا يُنكر ان تلك المدينة في عهد الدولة الاراتقية بلغت بعض الشهرة بأدبها ومعارفها . وقد اشتهر فيها علماء كالسبط المارديني الواسع التأليف في علوم الهيئة والهندسة والفرائض توفي سنة ١٢٤١ هـ (١٥٢٧ م) . واشتهر الشاعر ابن مشرف المارديني وفي مكتبته الشرقية نسخة فريدة من ديوانه . توفي في اواسط القرن التاسع للهجرة . وفي ماردن اشتهر صفي الدين الحلبي في اواخر القرن السابع واولئل الثامن قدح سلاطين ماردن وفاض في وصف محاسن حاضرتهم فتا قال :

حبيدا ارض ماردن وير م - الظل فيها ومازما وهواما
بلدة تنبت الكرام فلا م ذقت فنام ولا عدت فاما
ففي ارض ان لم تكن هي ذات م النفس مني فاعما مشها
جمت سائر المنى فلهذا م ما اتاما ذر الحلم ألا وتاما
كم رأينا لما وفيها وسها م صوراً تُفك الدماء دماها
لو تمكنت ان افضي جام م السر جيباً لا كنت سواما

وهو القائل : لن وهي يتخذ السحاب الشين
مدينة لم تر في جوها م جوراً ولا في اهلها ماردن
كم شامت عيناى من اهلها م اظهار سرور واهار دين
افاضل في عيهم ما ردوا م ونوسة في مثل ما ردين

وكان سبق الاخطل (ص ٢٠٩) فوصف ماردن بشعره الجميل :

رأوا ثنراً يُحيط به المنايا وأكيد ما يغيره النيار
قاي ماردون به الثريا وأبدي الناس دوضم قصار

ومع ما حلّ بباردين من خمول المعارف لا يزال بين أهلها شي من مسحة الآداب فاجتمنا بمن اشاروا الينا بتقدّمهم في الدروس فلقينا عندهم من اللطف والجمامة ما زادنا لاشخاصهم اعتباراً. على أنّ المسلمين في الغالب لم يحرزوا من العلوم الا قليلاً من الصرف والتحرر وبعض العلوم الدينيّة لاسيا النقه وكذلك انصارى لم يزيدوا شيئاً على مبادئ العلوم لخلو مدارس من المدارس المصريّة المحكّمة. لكنّ بعض ارباب الاكليريوس المارديني الذين تحرّجوا في مدارس بيروت وغزير والشرقة ناشرون في وطنهم معالم الآداب جامعون بين الفضائل الكهنوتيّة والمعارف البشريّة. وقد فتح المرسلون الاميركيون مدارس في ماردين يثرون فيها مذهبهم البروتستاني اكثر منهم للعلوم ولذلك يأخذ الاهلون حذرهم منهم. ومعظم طلبتهم من اليعاقبة

وقد اطلعنا في ماردين على ما تحوزه بعض المكاتب من المآثر الادبيّة فقي كنيسة الكلدان مكتبة قديمة تحتوي بضع مئات من الكتب الكلدانيّة والعربيّة منها بعض اناجيل راقية الى ما وراء القرن العاشر وكتب طقيّة فيها النقوش البديعة والتصاوير ومنها تأليف مشاهير كتبة السريان كالقديس افرام ومار يعقوب وغريغوريوس بن العبري ومتنولات عن الآباء اليونان. ووجدنا اليد ايليا ميلوس وهو اذ ذاك رئيس اساقفة ماردين على الكلدان مغمراً بهذه التآليف القديمة وقد نشر شيئاً منها بالطبع

وفي هذه المكتبة وُجدت الترجمة الكلدانيّة لكتاب كلية ودمنة السابقة لترتيب ابن القنق بنحو ثمانمائة سنة فنشرها في المانية الالامة بيكل (Bickell) وكذلك عند السريان الكاثوليك والارمن بعض المختلوطات السريانيّة والعربيّة التي تستحقّ الذكر واكثرها لكتبة نصارى من مرسلين اوردبيين ودهبان وطنيين ولم يجب رجاؤنا بما كنا نؤملُه من اقتناء بعض تلك الآثار

واذ كان بلغتنا سابقاً انّ في دير الزعفران مكتبة مهتة عولنا على زيارتها بصحبة حضرة الخوري هرمز نورسو الكلداني واحد تلامذة كليتنا في بيروت الذي قام بجهدتنا ما امكّنه مدّة اقامتنا في ماردين. فركبنا الجياد في ١٢ من شهر تشرين الاول وسرنا الى ذلك الدير الشهير فقطعنا بعض بساتين ماردين فبلغنا قرية « قلعة مرا » التي يعتبرها اليعاقبة كاحدى آهات شيعتهم ولم نلبث حتى وصلنا بعد ساعة الى دير

الزعفران وهو لا يبعد عن ماردين أكثر من ثمانية كيلومترات. وهذا الدير عبارة عن ابنة ضخمة متراكمة يحدق به سور كحصن. ووراء السور دهاليز معقودة يُدخَل منها الى الدير. واقدم ما فيه كنيسته البنية على طرز كنائس القرون الوسطى يهندسة بسيطة إلا انها موافقة لمبادئ الرهبان وفرائضهم. وقد روى ابن العبري في تاريخه الكنسي طبعة لامي (Greg. Barhebraei Chronic. Eccles L. 338) انه كان قرب ماردين حصن مبني بالحجارة المنحوتة منذ عهد الرومانيين فاشتره حانياً مطران اليعاقبة وجعله ديراً وأغرس فيه كرمًا وزيتوناً وشيد فيه كنيسة ومذبحاً واجتمع اليه رهبان كثيرون فُعرف هذا الدير بدير حانياً وهو دير الزعفران وهذا الدير في أيامنا يكنه نحو عشرة رهبان وفيه منذ عدة قرون مقام بطاركة اليعاقبة. وكان البطريرك لما زارناه هو المسمى عبد المسيح. فطلبنا مواجبه واستقبلنا في قاعة كبيرة هي الديوان فبعد ان دار الحديث بيننا قليلاً طلبنا اليه ان يرخص لنا بزيارة المكتبة فكان جوابه ان المكتبة ليست متظنة وليس فيها شي. يستحق الذكر فاردفنا بأننا لا نزيد إلا الاطلاع على مضمونها مهما كانت والحنا عليه بالطلب فلم يمكننا اقتاعه. ومنا اخبر الرحالة ساخو (D^r Ed. Sachau) انه في سنة ١٨٧٦ زار دير الزعفران في أيام البطريرك بطرس وأذنه وجد في مكتبته نحو عشرين كتاباً النصف منها مكتوب على الرق وبعضها يرتقي الى القرن العاشر او التاسع. ثم قال «بانني ان مكتبة الدير نُقلت الى ديار بكر والله اعلم». فودعنا البطريرك غير مشين على كرمه بل صرحنا له بأننا اذا كتبنا يوماً تاريخ رحلتنا سوف نذكر ردة ملتسنا

ومن غريب ما جرى للبطريرك المذكور انه سافر بعد ذلك الى الاسكندرية نحو السنة ١٩٠٥ فر في بيروت واتى الى كليتنا ليزورها فوجبت به ورافقتة في زيارة معاهد مدرستنا وادخلته في مكتبتنا الشرقية ثم ذكرتة كيف اقبل دوننا مكتبة دير الزعفران فاعتذر الينا ووعدا انه لا يبخل علينا مرة اخرى بمطالعتها. لكنه لم يمر عليه بضعة اشهر حتى عُزل عن البطريركية بأمر السلطان عبد الحميد (له تابع)

